الأدب في عصر مملكة غرناطة

"الاندلس الصغرى"

٦٣٥ – ٨٩٧ هـ

١٢٣٨ – ١٤٩٢م

مقدمة تاريخية:

بعد معركة العقاب سنة (٦٠٩هـ) واندحار القوات الموحدية في الاندلس وفي شمال افريقيا وسقوط المدن الاندلسية تباعاً، رأى أهل الاندلس من الافضل القيام بعمل دفاعي يحفظ لهم ما بقي من بلدهم، فظهر ابو عبد الله محمد بن هود في مرسية سنة ٦٢٥ وحكم تحت راية الخليفة العباسي وخلع طاعة الموحدين، كما ثار ابن مردنيش سنة ٦٣٠ للهجرة، وسيطر محمد بن يوسف بن الاحمر على ارجونة ومناطق غربي الاندلس، واصبحت الاندلس تمر بمرحلة طوائف ثالثة، فسقطت مدينة قرطبة سنة ٦٣٣هـ وبلنسية سنة ٦٣٦هـ ومرسية ٦٤٤ واشبيلية ٦٤٦ هـ، وتمكن محمد بن يوسف بن الاحمر الاحتفاظ بغربي الاندلس وتأسيس مملكته من سنة ٦٣٥ –ولغاية سنة ٨٩٧ هـ فيما يمكن تسميته بعصر بني الاحمر الذي استمر ما يقارب القرنين والنصف وحكمها عشرون سلطاناً، وكانت تتكون من ثلاث ولايات غرناطة ومرية ومالقة، وقد صمدت امام الممالك النصرانية بمساعدة الدولة المرينية التي تشكلت في المغرب.

وبعد سقوط دولة بني مرين، واشتداد الصراع على السلطة في دولة بني الاحمر واتحاد مملكتي قشتالة واراغون في عام ٨٨٤ هـ على اثر زواج ملك ارغون وملكة قشتالة، بدأت دفاعات دولة بني الاحمر بالسقوط، وشدد الاسبان الحصار على مدينة غرناطة فاستلمت بشروط في ربيع ٨٩٧ للهجرة منهياً حكم المسلمين للجزيرة التي استمر ما يقارب ثمانية قرون، وتم تسليم القصور الملكية والابراج ووضع فوق

برجه العالي صليب كبير فضي وبجانبه علم قشتالة وعلم قديسهم، واعلن من فوق الابـراج ان غرناطـة اصـبحت ملكـاً للملكـين الكـاثوليكين، ووقـف ملكـه ابـو عبـد الله الصغير مودعا ملكه، فاجهش بالبكاء فصاحت به امه " ابك مثل النساء مُلكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال " لتبدأ مأساة الاندلسيين ومحاكم التفتيش التي قضت على وجودهم في أسوأ صفحات التاريخ على مر الدهر[1].

الحالة الثقافية:

اهتم حكام بني الاحمر بالثقافة، واجتمع لديهم من الادباء والعلماء عدد كبير لكثرة هجرات المسلمين من المدن الاندلسية المختلفة الى الدولة التي اسسها بنو الاحمر في غرناطة، فمعظم السلاطين كانوا شعراء ينظمون الشعر مثل محمد الثاني " ت٧٠١هـ " ومحمد الثالث " ٧٠٨هـ " ويوسف الاول الذي ظهر في عهده طائفة من الشعراء والادباء أمثال ابن الجياب وابن الخطيب وابن زمرك وابو الحسن الذباهي وابـن ليـون التجيبـي، واسـس مدرسـة غرناطـة ذات السـمعة العاليـة، عرفـت باسـم المدرسة العلمية أو المدرسة النصرية وكانت تدرس فيها العلوم الدينية ومختلف انواع المعرفة والفكر، وكتب على باب المدرسة: -[2]

يـا طالـب العلـم هـذا بابـــه فتحـا فأدخـل تشـاهد سـناه لاح شـمس ضـحى

واشـكر مجيـرك مـن حـل ومرتحـل اذ قـــرب الله مــن مرمــاك مــا نزحــا

وشــرفت حضــرة الاســلام مدرســة بهــا سبـــيل الهـدى والعلـم قـد وضـحا

اعمـــال يوســـف مـــولانا ونيتـــه قـد طـــرزت صـحفا ميزانهـا رجحـا

---

[1] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين : ٤٥٢ ، د. علي محمد الصلابي ، دار المعرفة ، بيروت ، تاريخ العرب وحضارتهم : ٢٩٨ مجموعة مؤلفين ، جامعة الموصل ، وسقوط غرناطة ، د. ناصر العمر ، نهاية الاندلس وتاريخ المنتصرين : ٣٦٩ ، غرناطة في ظل بني الاحمر ، د. يوسف شكري ، ونفح الطيب وغيرها .... .

[2] النفح ٥ : ٤٥٧ .

وكانت تدرس فيها اللغة والادب، واعتمدت كتاب سيبويه وكتاب الاغاني واثار الجاحظ ومقامات الهمذاني والحريري وديواني الحماسة والمتنبي من الكتب المقررة[١].

وبرز في ذلك العصر الامير ابو الوليد بن احمر، وخلف كتباً كثيرة منها: " نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان " [٢] وفيه يتناول سير الكتاب والشعراء المشهورين في القرن الثامن للهجرة وكتاب " نثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان "[٣] وفيه يتحدث عن شعر الملوك من بني الاحمر في الاندلس وبني مرين وبني حفص وبني عبد الواد من حكام افريقيا، ووصلتنا من تلك الحقبة دواوين الشعراء ابن خاتمة الانصاري وابن الجياب وابن الخطيب وابن فركون والبسطي، وقبيل السقوط برز القلصادي وابو يحيى بن عاصم ومحمد بن عبد الله المعروف بالعربي وابن الازرق الشاعر وغيرهم.

واتخذت دولة بني الاحمر مذهب الامام مالك اساساً لكل امورها[٤] وكان لعلماء المذهب سلطان قوي على الفكر والسياسة[٥] وبرز من علماء المذهب المالكي: أبو سعيد فرج بن لب (٧٨٢هـ) وهو من اشهر اساتذة المدرسة الغرناطية، وابراهيم بن موسى الغرناطي (ت٧٩٠هـ) صاحب كتاب اصول الفقه... كما شهدت في تلك الفترة حركة زهدية واسعة، واشار ابن بطوطة في زيارته لها (٧٥١ -٧٥٢هـ) الى تلك الحركة[٦] وكثرة حلقات التصوف، ورباطات كانت تقرأ فيها القرآن الكريم واشعار المتصوفة وحلقات الذكر ومن أقطابهم ابو اسحاق ابراهيم بن يحيى الانصاري (٧٥١هـ) صاحب كتاب زهرة الاتمام في قصة يوسف وابو عبد الله محمد الانصاري المالقي (٧٥٤هـ) وله كتاب " بغية السالك في اشرف المسالك " في مراتب

---

[١] تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس : ٣٥٩ .
[٢] تحقيق : محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٧ .
[٣] تحقيق : محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٧ .
[٤] اللمحة البدري : ٣٨ ، ابن الخطيب .
[٥] غرناطة في ظل بني الاحمر : ١٥٤ ، يوسف شكري فرحات ، بيروت ، ١٩٨٢ ،
[٦] رحلة ابن بطوله : ٢ : ٧٦٩ .

الصوفية، كما اشتهرت تلك الفترة بحلقات المدائح النبوية، وبرز في ذلك ابن الخطيب والششتري (ت٦٦٨هـ) وابن جابر الاندلسي(ت٧٨٠هـ) وقد اكثر من المديح النبوي وله ديوان سماه " العقدين في مدح سيد الكونين " كما له مشاركة في الشعر التعليمي باسم " البديعيات " وهي قصائد تعليمية في المديح النبوي.

وفي كتابة التاريخ برز لسان الدين ابن الخطيب وكتبه " الاحاطة في اخبار غرناطة " واللمحة البدرية في الدولة النصرية وكتاب " اعمال الاعمال فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام " وكتاب " نفاضة الجراب " وكتاب " كناسة الدكان " والقاضي ابو الحسن علي بن عبد الله الذباهي (٧٩٣هـ) وله كتاب " تاريخ قضاة الاندلس " وكتاب " نزهة البصائر والابصار " وابن خاتمة الانصاري (٧٧٠هـ) وكتابه: مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية " وغيرها.

اما في مجال اللغة، فقد برز عدد كبير من النحويين، ولنا ذلك ابن مالك (٦٨٦هـ) صاحب الألفية، كما شهدت حركة علمية في الهندسة والرياضيات والفلك والطب والفلاحة [١] وفي مجال النقد الادبي برز ابو البقاء بن شريف الرُندي الشاعر وكتابه " الوافي في نظم القوافي "[٢]، وهو صاحب القصيدة المشهورة في رثاء مدن الاندلس وكتابه نقدي وبلاغي يتناول محاسن الشعر وبديعه ومعانيه وهو مخطوط حسب علمنا، وحازم القرطاجني وكتابه " منهاج البلغاء وسراج الادباء "[٣] وهو كتاب نقدي في غاية الاهمية وكتاب " التسهيل " لابن جزي الكلبي[٤] في الفصاحة والبلاغة وغيرها من الكتب التي طمست بزوال الدول الاسلامية في الاندلس.

أهم الاغراض الشعرية: استمرت الاغراض الشعرية المعروفة من المديح والغزل والرثاء والهجاء والزهد والتصوف كما مّر علينا في الحقب السابقة والتي

---

[١] للمزيد عن هذه الحركة العلمية : ينظر : تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس : ٣٥٤ – ٣٥٩ .
[٢] للمزيد عن هذا الكتاب:تاريخ النقد الادبي في الاندلس: ٤٣٢-٤٧١ د. محمد رضوان الداية.
[٣] تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ١٩٦٦ .
[٤] نشره مصطفى محمد ، مصر ، ١٣٥٥م .

تتضح معالمها في حديثنا عن الشعراء الموظفين، وبرز في ذلك العصر اغراض شعرية جديدة نسبياً هي شعر النقوش والقصور وشعر الحكمة والموعظة وشعر الاسر وشعر المدح النبوي: -

١- شعر النقوش والقصور:

تعد القصور وما فيها من البرك والتماثيل والصور وما يحيط بها من الترع والبساتين والاشجار والانهار من ابرز مظاهر الحضارة المادية التي ظهرت في الاندلس، ومن اشهرها قصر الزهراء التي بني في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠) وعمل فيه على رواية المقري عشرة الاف عامل لمدة خمس وعشرين سنة واضاف اليه المنصور بن ابي عامر (٣٦٦-٣٩٢ هـ) اضافات كثيرة[١] واسرد ابن بسام في ذخيرته والمقري في نفحه صفحات طويلة لوصف تلك القصور، وفي قصر طليطلة يقول ابن حيان المؤرخ " وقد خرمت في جثمانه صور لبهائم واطيار واشجار ذات ثمار وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما يليها من افنان اشجار واشكال الثمار وفوقه بحور منتظمة من الزجاج الملوك الملبس بالذهب الابريز، وقد اجريت فيه اشكال حيوات واطيار وصور انعام واشجار يذهل الالباب ويقيد الابصار وارض هذه البحـــار مدحوه من اوراق الذهب

الابريز مصورة بامثال تلك التصاوير من الحيوان والاشجار... " [٢] وصفها الشعراء ضمن قصائد مدحية لتدل على ابهة صاحبها، ومن القصور الاخرى المبارك والثريا والزاهي والزاهر وسعد السعود في اشبيلية وقصور الدمشق والفارسي الذي قضى ابن زيدون لهوه في متنزهاته مع ولادة بنت المستكفي[٣] وقصور السرور ومجلس الذهب في سرقسطة وقصور أخرى [٤].

---

[١] عصر الدول والامارات : ٤٨ .

[٢] الذخيرة ١/٤ : ١٣٢-١٣٤ .

[٣] ديوان ابن زيدون ورسائله : ١٥٨ ، تحقيق : علي عبد العظيم ، دار النهضة ، مصر – القاهرة ، ١٩٥٧ .

[٤] للمزيد ينظر : " الاطر التشكيلية لقصائد الصورة في الاندلس " ، د. عمر ابراهيم توفيق ، منشورات مجلة جامعة كوية ، العراق / العدد ٢٠٠٨/٩ .

وللمستشرق فون شاك كتاب بعنوان " الفن العربي في اسبانيا وصقلية " تكلم عن روعة المعمار في تلك القصور، ووصف الشعراء لهذه القصور كانت انطباعية في وصف مجالسهم والمناظر المحيطة بها والتماثيل والبرك الموجودة فيها، وجاء اغلبها في مقدمات قصائد مدحية في الإشادة بأصحابها والأبهة التي ينعمون في ظلها كما قال احدهم: [1]

إن البنـــــاء اذا تعـــاظم شـــأنها أضـــحى يـــدل علـــى عظـــيم الشـــأن

ونظراً لجمال الخط العربي اعتاد المسلمون كتابة آيات القرآن الكريم وأبيات الحكم والمواعظ على واجهات وجدران الجوامع والمساجد، وقد تفنن الخطاطون في شكل خطوطهم ومنحنياتها، ولم يهتموا برسم الصور والتماثيل في اماكن العبادة لحرمتها شرعاً بينما تفنن الرسامون في رسم الصور في قصور الاندلس وبدلاً من كتابة الآيات القرآنية قاموا بكتابة قصائد مدحية عليها وهو عنصر جمالي غير مألوف في تسلق الشعر المنقوش والمزخرف على جدران القصور والتغني بامجاد اصحابها، ففي قصر طليطلة الذي بناه المأمون واشرنا اليها وفي مقصوراته المتأنقة كانت تزينه قصيدة منقوشة [2].

ولم ترد في المصادر ذكر تسلق الشعر المنقوش على القصور الاخرى في عهد ملوك الطوائف وفي عصري المرابطين والموحدين بينما برزت على قصور غرناطة وجنة العريف في عهد دولة بني الاحمر وعلى اقواسها التي تتخذ شكل حدوة حصان والمغطاة بالزليج، ولقد كانت مزجاً جمالياً بأخذ الحسن من جمال الشعر والخط الرائق والفن المعماري الهندسي، واسلوبها الكتابي ذو نمط اندلسي ومنحوتة او منقوشة بالجبس وقابلة للزوال ولم يتبعوا طريقة النقر على الحجر لاسباب نجهلها، وقام اميليو جارثيا جومث بتخصيص دراسة عن النقوش الكتابية للشاعر ابن زمرك

---

[1] النفح ٢: ٦٢ .
[2] الادب الاندلسي: ١٥٨ ، ماريا .

سنة ١٩٧٥، ويعد ابن الجياب من اول الشعراء المعروفين في قصر الحمراء واشعاره تزيّن او تذهب ابراج الزوايا الداخلية لقصر السلطان ابي الحجاج يوسف الاول[١].

قصـــر تقسمـــت البهـــاء ســـماؤه والأرض منـــه والجهـــات الاربـــع

فـــي الجـــص والـــزليج منـــه بـــدائع لكـــن نجـــارة سقفـــــه هـــي أبـــدع

جمعـت وبعـد الجمـع احكـم رفـعها للنـــصب حيـث لهـا المحـل الأرفـع

تحكـي بـديع الشـــعر منـه مجـنس ومظفـــــر ومغصـــن ومرصـــع

أبـدتْ لنـا مـن وجـــهه يوسـف أيـة فيهـــا تكامـــلت المحاســـن أجمـــع

ومـن خـزرج الفـخر الألـى أثـارهم فـــي الـــدين صـــادعة بنـــور يســـطع

كما الف الشاعر نفسه قصائد جنة العريف، ذلك القصر الذي بناه اسماعيل الاول ليخلد ذكرى انتصاره على أمراء قشتالة وأولها: [٢]

طـــاق ببـــاق المجلـــس الاســـعد لخـــــدمة الحضـــــرة بالمرصَـــــد

وابن الخطيب نقشت قصائده على قصر الحمراء في عهد يوسف الاول ومحمد الخامس ولكن وقوعه في المأساة وسجنه ادى الى محو هذه القصائد واستبدالها بقصائد ابن زمرك ولكن بعض قصائده بقيت على الكوات المؤدية الى القاعة الكبيرة منها: -

فقـــت الحســـان بحـــلتي وبتـــاجي فهـــوت الـــى الشـــهب فـــي الأبـــراج

يبـــدو إنـــاء المـــاء فـــي كـــــعابد فـــي قبلـــــة المحـــراب قـــام ينـــاجي

واشارت: ماريا خسيوس بعد معاينتها لقصر الحمراء[٣]، إن سائر القصائد الكبيرة على جدرانه لابن زمرك وينسب الى محمد الخامس الذي عمل لديه كشاعر

---

[١] الادب الاندلسي : ١٥٨، ماريا .
[٢] نفسه : ١٥٦ .
[٣] الادب الاندلسي : ١٦٤ .

ووزير، منها القصيدة التي تزين نافورة الاسود و هي قصيدة مدحية في اثني عشر بيتاً منها: - [1]

تبـــارك مَـــنْ ولاك أمـــــر عـــباده فأولـــــى بـــك الإســـلام فضـــلاً وانعمـــاً

فكـــم بلـــدة للكـــــفر صبـــحت أهلهـــا وأمسيـــــت فـــــي أعمـــــارهم متحكمـــــا

وطـوقتهم طـوق الاسـارى واصـبحوا ببابـــــــك يبنـــــون القصـــــور تخـــــدما

وفتحـــت بالســـيف الـــــجزيرة عنـــوة ففتحـــــت بابـــا كـــان للنصـــر مبهمـــا

ومـن قبلهـا استفتحت عشـرين معقـلاً وصيـــــرت مـــا فيهـــا لجيشـــك مغنمـــا

وقصيدة اخرى طويلة عدد ابياتها مئة وخمسين بيتاً نقشت عدد من ابياتها على جدار بهو الاختين في قصر الحمراء قالها في وصف دار بناها السلطان محمد الغني بالله ومطلعها [2].

سـلِ الافـقَّ بـالزُهرِ الكواكـبَ حاليـاً فانـــــي قـــد أودعتُـــــه شـــرح حاليـــاً

ويقـول غرسـيه غـرمس[3]" وقـد نقشـت بعـض ابيـات زمـرك علـى جـدران الحمراء، وهي تكوّن جزءاً لا ينفصل من زخارف قصور بني نصر ".

وقد طوى الدهر ما كتبه الملك الشاعر يوسف الثالث والشاعر ابن فُركون الذي كان يقوم بمدحه وهي قصائد نقشت على الاقواس، علماً ان شعار دولة بني الاحمر كانت عبارة " لا غالب إلا الله " وكانت تنقش على واجهات الابنية الرسمية، ومن امثلة على شعراء النقوش: -

ابن زُمرَك (ت٧٩٦هـ):

---

[1] نفسه : ١٦١ (القصيدة كاملة) ولم اجدها في الديوان .
[2] الديوان : ق : ١١١ .
[3] الفكر الاندلس : ١٤١ .

هو ابو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد المعروف بابن زُمرَك، ولد سنة ٧٣٣هـ في غرناطة من اسرة مهاجرة فقيرة من شرق الاندلس، كان ابوه يعمل حداداً، وكان يتصف بدهاء وذكاء وجحود واخذ علومه من حلقات العلماء والشيوخ، ومنهم استاذه وصنيعته ابن الخطيب الذي اعتنى به والحقه بدواوين الامارة وكفل له راتبا حسناً، وعندما خُلع محمد الخامس الغني بالله عن الامارة سنة ٧٦٠ هـ ونفي الى المغرب، التحق به مع شيخه ابن الخطيب، وعند عودته الى الحكم عاد معه بصحبة ابن الخطيب الذي كان يردد له في رسائل وقصائد ولاءه له وحمده وشكره على ما وصل اليه بفضله، وفي سنة ٧٧٣ هـ دبرت مكيدة على ابن الخطيب، فهرب الى المغرب عند سلطان الدولة المرينية بتلمسان واحتل ابن زمرك مكانه واصبح الوزير الاول للسلطان الغني بالله، وتبذل جهود كبيرة لاعتقال ابن الخطيب فسجن في سنة ٧٧٦هـ وتقدمت لجنة لمحاكمته من غرناطة برئاسة ابن زمرك، ويتهم بالالحاد والزندقة لعبارات صوفية وردت في كتابه " روضة التعريف بالحب الشريف " ويسترسل في توبيخه، وبإحدى الليالي دُسّ اليه من قتله واشعلت في جثته النار قبل دفنه، ووري التراب في تهمة زائفة، ونعم ابن زمرك بالوزارة عشرين عاماً، وسجن سنة ٧٩٣هـ لمدة سنة ونصف وعاد الى منصبه في عهد محمد السابع سنة ٧٩٥ هـ وسرعان ماشرب من الكأس الذي دبر لابن الخطيب فاقتحم حرس السلطان بيته وفتكوا به وبابنين له. والف السلطان يوسف الثالث فيه كتاباً سماه " البقية والمدرك من كلام ابن زمرك " لانه خدم السلطان الغني بالله سبعاً وثلاثين سنة، انشده ستا وستين قصيدة في ستة وستين عيداً وفي كل منازله من القصور والرياض، واورد المقري في ازهار الرياض عشرين قصيدة ومخمسة طويلة وثلاثين مقطعة في الغني بالله وفي مدح ابن الخطيب ولى نعمته الذي غدر به[1].

[1] ترجمته وشعره في : ازهار الرياض: ٢ : ٧ -٢٠٦ المقري التلمساني ، الاحاطة : ٢ : ٣-٢١٤ ، النفح ١٧٩/٧ ، الكتيبة الكامنة من شعراء المئة الثامنة : ٢٨٢ ، نيل الابتهاج : ٢٨٢ تنبكتي (طبعة فاس) ، جذوة الاقتباس في من حل بالاعلام بمدينة فاس : ١٨٤ ، ابن القاضي ، الدرر الكامنة : ٤ : ٤١٢ ابن حجر ،عصر الدولة والامارات :٢٠٧-٢١٠ ، الفكر الاندلسي :١٣٩ ،

ومن أهم مدائحه قصيدته التي اشرنا اليها في شعر النقوش التي تتكون من مئة وخمسين بيتاً استهلها بغزل في ثمانية وعشرين بيتاً ثم يستخلص الى مدح الغني بالله ووصف قصور الحمراء وما فيها النقوش والزخارف منها[١].

ولله مبـــــــناك الجميـــــلُ فإنّـــــه يفــوق علــى حـــكم الســعود المبانيــا

فكــم فيــه للأبـــصار مــن مُتَنَــزَّه تجـــــدُّ بـــه نفــس الحلــيم الأمانيــا

وتهـوى النجـوم الزُّهـرُ لـو ثبتـت بـه ولــم تــك فــي افـــق الســماء جَواريــا

ومعظم قصائده المدحية لا تخلو من الحجازيات والمديح النبوي على سُنة ذلك العصر وله خمس عشرة موشحة اكثرها في مديح الغني بالله واحداها في مديح الرسول (ص) ورسائل ثلاث ومقطوعتين نثريتين، وقام د. احمد سليم الحمص بجمع اشعاره في كتاب سماه ديوان ابن زمرك دون ان تسبقه دراسة [٢] ومن موشحاته، موشحة صبحية (الصبوحات او الفجريات): [٣] و هو غرض اندلسي جديد

ريحانـــــةُ الفجـــرِ قـــد أطَلّـــتْ خضـــــراء بـــــالزُّهر تُزهِـــــرُ

ورايـــــةُ الصـــــبحِ قـــد أظلّـــتْ فـــــي مرقَـــب الشـــرقِ تُنشَـــرُ

٢- شعر الحكمة والموعظة:

الحكمة اصطلاحاً تعني: " بعد النظر في الحياة والدين والاخلاق والسياسة، وتنبع من عقل واع ونفس حساسة خبيرة باسرار الحياة ووقائعها " [٤].

مع شعراء الاندلس والمتنبي : ١٩٠ اميلو غرسيه غومس ، ديوان ابن زمرك ، جمع د. احمد سليم الحمص ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٩٨ .

[١] نصائح الاحباب وصحائح الاداب ، ابن ليون التجيبي ، جمع ودراسة وتحقيق : د. عمر ابراهيم توفيق ، الدراسة الموضوعية : ٣ .

[٢] ديوانه : ق ١١١ ، ص١٤٠ ، الازهار : ٢ : ١٥ ، النفح ٧ : ١٨٨ .

[٣] المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٩٩٨ .

[٤] ديوانه / م : ٩ ، الازهار :٢ : ١٨٦ ، النفح ٧ : ٢٤٩ .

اما الوعظ: فأنها تعني اصطلاحاً " التذكر بالخير فيما يرق له القلب "[1] وان الفرق بينهما ان الاولى اقرب الى العقل والثانية الى القلب، والحكم تصاغ في الغالب صياغة فنية مؤثرة تقبل عقلياً وتستساغ قلبياً بسحر معانيها والفاظها الخلابة، والادب العربي مليئ بالحكم والمواعظ، اما في الاندلس فبرزتا بشكل واضح نتيجة ارتقاء الفكر وسمو فروع المعرفة وامتزاج ثقافات متعددة وكثرة الاضطرابات السياسية لاسيما في عصر مملكة بني الاحمر وانحصار المسلمين في بقعة صغيرة وتساقط اراضيها تباعاً وظهور طبقة من الوعاظين في الجوامع واعتقاد الناس بان الذين يفرطون في الزهد والنسك اولياء الله الصالحين اضافة الى تظاهر بعضهم بتلك الصفات واقحام اقوالهم بالحكم والمواعظ [2] ومعانيهم كانت تدور حول نقد المجتمع والكشف عن عيوبه المستشرية والدعوة الى الاعمال الصالحة والعبادة والزهد والتصوف والمدائح النبوية والاستنفار والاستصراخ، ويعد ابن ليون التجيبي خير من يمثل هذا الموضوع وقد سبقه في ذلك في الاندلس يحيى بن حكم الغزال (ت٢٥٠ هـ) وابو حفص عمر الهوزنى (ت٤٦٠هـ) وابن العسال الالبيري (٤٨٧ هـ) وابو المعالي الاشبيلي والشاعر الحكيم ابو الصلت الداني (ت٥٢٩هـ) وغيرهم.

ابن ليون التجيبي (٦٨١-٧٥٠هـ):

هو ابو عثمان سعد بن ابي جعفر احمد بن ابراهيم بن ليون التُجيبي " من أكابر الائمة الذين افرغوا جهدهم في الزهد والعلم والنصح " [3].

ولد بالمرية سنة ٦٨١ للهجرة، نشأ بها ولم يخرج منها، وتوفى بالطاعون سنة سبعمائة وخمسين للهجرة، وله اكثر من مئة مصنف مفقود، وقف المقري على اكثر من عشرين كتاباً له منها " كتاب في الهندسة وكتاب في الفلاحة وله كتب في

---

[1] وقد حققت الكتب الثلاثة بعنوان : الحكمة والموعظة في شعر ابن ليون التجيبي : جمع وتحقيق ودراسة د. عمر ابراهيم توفيق دار غيداء الاردن .

[2] لتعريفات : ١ : ٨ ، علي حسين الجرجاني .

[3] نصائح الاحباب : الدراسة الموضوعية : ٥ .

الوصايا والمواعظ منها "النصائح الاحباب وصحائح الاحباب " و " الابيات المهذبة في المعاني المقربة " و " اندام الديم في الوصايا والمواعظ والحكم "[1] " وبغية الموانس من بهجة

المجالس وانس المجالس " و" بغية الموانح من بهجة المجالس وانس المجالس " ولم نعثر عليهما واشتهر باختصاره للكتب منها: "اختصار بهجة المجالس لابن عبد البر " و " اختصار المرتبة العليا لابن راشد القفصي " و " نفح السحر في اختصار روح الشعر لابن جلاب الفهري " [2] وكتب اخرى[3] وشعره كله حكم وعظات فيه كثير مما هو دائر على السنة الزهاد والمتادبين والاقوال المشهورة في شعر السابقين، وهو نمط اشتهر في حقبة الانكسار السياسي الذي رافق القرون الثلاثة الاخيرة في الاندلس الصغرى، وتتسم تجربته بتعالي النبرة العاطفية والوجدانية والانفعالية بآفاقها الانسانية بحكم الاسباب والقضايا والاحداث التي انشغلت بها الاندلس، وانعكست تأثيراته على الشاعر وفكره ورؤيته، فامتزجت غنائية المقطعات بالبكاء والاسى والمرارة والصبر باسلوب خطابي وعظي منصهر فيه المرجعات الدينية والتراث الاسلامي، وتمركزت معظم مقطعاته حول الذات والعبر وأفول الحياة وسخرية القدر والزمان والعلاقات الاجتماعية، ولغته كانت من عناصر اللغة المتداولة دون اللجوء الى الرمز او الضبابية لغلبة المباشرة، وموسيقاه، افقية ذات ترددات منخفضة، وكانت مقطعاته جرعات استشارية بمذاق مر لما يحس به ويتوقعه لمجتمعه في غياب الفرح والابتهاج والحب في مقطعاته، لذلك لم يدل دلوه في الغزل، إلا مقطعة واحدة جاء في آخر كتابه " الابيات المهذبة " ولم يعاد المرأة ولم يتطرق اليها إلا في مقطعتين ، " في عدم مطاوعة النساء او مسايرة هواهن مع العدل والترضي " اما

---

[1] النفح ٨ : ٥٧ .

[2] حققت نفح السحر من قبل الباحثة منال محمد مذيزل ، ضمن رسالة ماجستير لكلية الدراسات العليا ، الجامعة الاردنية ، ١٩٩٥ .

[3] نصائح الاحباب : ٣ .

بحوره فمعظمها مجزوءة كثيرة الخلل في التفاعيل وكثرة الزحافات والعلل لانه كان يفكر بعقله ويكتب بعقله، فهو عالم اجتماعي ورجل قياس وتوجيه.

وقسمنا موضوعاته الى ابواب عدة وهي: العلم والصداقة والعلاقات الاجتماعية، والخلق والاخلاق الحميدة، واللهو والخمول، والدنيا والزمان.

اورد في كتابه " نصائح الاحباب " اثنتين وتسعين قطعة شعرية وفي "الابيات المهذبة " اثنتين وخمسين قطعة وفي " اندام الديم... " ثماني واربعين قطعة شعرية ومن مقطعاته: باب العلم: [١].

شفاء داء العي حُسنُ السؤال فأسأل تنل علماً وقل لا تبال

واطلب فالاستحياء والكبر من موانع العلم فما إن ينالِ

وفي الصداقة يقول: [٢]

اذا كنتَ لا تنصر الصديق فدع سماعك القول فيه واجتنب

سماع عرض الصديق منقصةٌ لا يرتضيها الكريم ذو الحسب

وفي صيانة اللسان يقول: [٣]

نعوذ بالله من شر اللسان كما نعوذ بالله من شر البريات

يجني اللسان على الانسان ميتته كم للسان من آفات وزلات

وفي الطهارة[٤]:

مروءة المرء ثوبه والعرى في الناس عيبه

بثوبه المرء يعلو قدرا ويحفظ قربه

---

[١] صحائح الاحباب : ٣ .
[٢] نفسه : ق: ٢٧ .
[٣] م : ٥٧ .
[٤] الابيات المهذبة : م : ٢٠ .

مَـــن لـــم يصـــنْ ثوبـــه لـــم يَصُـــــــــن وان لاح شـــــــيبه

وقوله: [1]

عليـــك بنفســـك لا تشتغـــل بشـــيء ســـواها وخـــلَّ الفضـــول

تعـش رائـح القلـب فـي غبطـة فـــلا مَـــنْ يضـــر ولا مـــن يقـــول

واخيراً قوله: [2]

لا تـبح مـا حييـت يومـا بـسر لصـــــــديق ولا لغيـــــر صـــــديق

إنّ ســراً يجــاوز الصــدر فــاشٍ يدريـــه العـــدا ومـــن فـــي الطريـــق

٣- شعر الأسـر:

كان الحرب سجالاً بين المسلمين والنصارى، وفي القرون الثلاثة الاخيرة اقترب النصارى من عقر ديار المسلمين، واصبحت اراضيهم وحصونهم ساحات للمعارك، وكان الافرنج أحياناً يقومون بغارات على قرى وبساتين المسلمين يأسرون ما يقع تحت أيديهم من رجال ونساء يبيعونهم عبيداً في سوق النخاسة، ويضعون مبالغ كبيرة فدية لاطلاق سراحهم، وكانت تجارة رابحة تدرُ أموالاً طائلة، وقد يكون بين الاسرى علماء وأدباء، اطفال ونساء، لا فرق بينهم، كل واحد يباع بسعره، وعبر بعضهم عن معاناته واحواله في رسائل او قصائد بعثها الى اهله وأصدقائه، أمَرُّ وأوجَعُ من قصائد أبي فراس الحمداني لان المستقبل كان مظلماً امامهم، ومن بيم هؤلاء شاعرنا البسطي، اخر شعراء الاندلس كنموذج لشعر الاسر.

البسطي: (ت٨٩٥أو ٨٩٦)

---

[1] اندام الديم : م : ٩ .
[2] نفسه : م : ١٥ .

هو عبد الكريم او محمد عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي ولد في مدينة بسطة المشهورة بطبيعتها الجميلة قرب غرناطة، في العقد الثاني من القرن التاسع الهجري، وفيها نشأ وقضى معظم حياته، وكان له حانوت يشتغل فيه بالنسخ والتقييد والفتوى والتعليم، وقال قصيدة طويلة بعد احراق حانوته ظلماً[1].

فـاحراق حـانوتي – لتـنحط رُتبتـى يعـــود علـــيهم بانعكـــاس المؤمـــل
فقـد كـان للاحكـام مجلسَـها الـذي تُصـــانُ بـــه مـــن مُفســـدٍ أو مُبـــدَّلِ
وكـــان لتقييـــد العلـــوم وضـــبطِها وعقـــد شـــروط القـــوم أقنـــى منـــزل

وكـان لـه اصـدقاء مـنهم القلصـادي الشـاعر ولـه معـه مراسلات كثيـرة فـي ديوانه، وكان رفيقا لأبي عبد الله بن الازرق الوادي آش والشاعر أبي يحيى ابن عاصم وابي حامد ابن الحسن النباهي وولده أبي جعفر احمد... وبعد ان أخذ قدراً من العلم اضطر تحت وطأه الحاجة الى مغادرة " بسطة " وهو في مرحلة شبابه للعمل في مسجد " برجة لقاء اجر سنوي قدره خمسون ديناراً كما يتضح من رسالته الى أبيه[2]

فقـد شـيبتْ هـذه البُشَـراتُ مفرقـي وسنـــي كمـــا تـــدرون سِـــنُّ غـــلام
بخمســين دينـــاراً ومـــا هـــو تـــابعٌ لـــــها مِـــن فـــراش لائـــق وطعـــامِ
اروح واغـــدو بـــين قـــوم تواطـــؤو قديمـــــا علـــى إكـــرام كـــلِّ إمـــامِ
وفـــي بَرجـــةٍ مثـــوايَ حيـــث تبســـمتْ ثغـــورُ الاقـــاحي مـــن بكـــاء غَمـــامِ

وخلال تجواله في القرى والمدن الصغيرة تعرض للاسر في بعض الطرقات بينما ذهب البعض انه اسر اثر اشتراكه في الجهاد وانخراطه في صفوف المجاهدين،

---

[1] البسطي أخر شعراء الاندلس : ١١ .
[2] نفسه : ٢٥ .

والارجح أو اسر في احدى الغارات على مدينته لان الاسارى لم يكونوا من المحاربين وكان بينهم نساء[١].

وفي الاسر وضع في زنزانة وعمل في الاشغال الشاقة وانه بيع بعد ذلك الى احد كبراء النصارى كخادم، وفي اسره تفتحت قرائحه الشعرية وسجل لنا اقوى القصائد في الحنين والشوق الى اهله وبلدته والتضرع الى الله تعالى، ويتبين ذلك من خلال مراسلاته الشعرية الى أبيه وأصدقائه، وطلب منه الف دينار فدية لاطلاق سراحه ودبر بعضه من بيع كتبه واطلق سراحه كما يقول في رسالته الى صديقه ابن الحسن النباهي عند خروجه من الاسر[٢]:

اعلاقَ علمي بعتُ في الخطبِ الذي هو ظاهر للمبتدى والشادى

ورجع بعد الاسر الى بلده " بسطة " ورضيّ الغنيمة بالأياب، وبدأ يفصح عن هواجسه وخوفه من الموت بعد بلوغه الأربعين من العمر قائلاً[٣].

مرور الأربعين اطار نومي واجرى فوق صفحَ الخدَّ دمعي

وعلمي بالرحيل غداً وتركي من أهلي مِنْ غدا بصَري وسمعي

وفي بلوغه الخمسين[٤]:

أيلهو امرُؤٌ مثلي صباهُ قد انقضى بخمسين عاماً قد تولَتْ من العمرُ

وانه عاش حصار بسطة من قبل الملكين فردناند وايزابيلا ملكي قشتالة واراجون الذي استمر قرابة سبعة اشهر و انتهت بتسليم المدينة سنة ٨٩٤ للهجرة و قد اشاد بقائد حامية مدينته وقت الحصار[٥].

عزموا على إجلائنا عن ارضنا مِنْ بعدِ ما اجتمعوا لنا وتألفوا

---

[١] نفسه : ٢٧ .
[٢] نفسه : ٣٩ .
[٣] نفسه : ٤٠ .
[٤] نفسه : ٤١ .
[٥] نفسه : ٤٣ .

والارجح أنه توفي قبيل حصار غرناطة وسقوطها لانه لم يتطرق الى حصارها والمشاكل السياسية التي رافقته وربما توفي سنة ٨٩٥ أو ٨٩٦ وله قصيدة في مرضه يقول[١].

وما زلتَ تشفي السقمَ يارب دائماً وتُطفي ببَرد البُرءِ من غُلة الصدر

فجُدْ الهي بالذي منكَ ارتجي وَحقَق رجائي فيك يا عالمِ السِّرِّ

له قصيدة في رثاء ابنيه التوأمين اذ مات احدهما باثر الاخر وهما في الطفولة المبكرة مطلعها[٢].

اودى حسينُ واودى بعدَه حَسَنُ فطار بعدَهما عن مقلتي الوسَنُ

وكان يرى ان نعم الدنيا محصورة في ثلاث جمعها في قوله: [٣]

نعمةُ الدنيا ثلاث هُنّ في الدنيا النَّهاية

صحة الجسم وزوجٌ ومن المال الكفاية

ديوانه: مفقود، ونشر د. محمد ابن شريفة دراسة عنه مقرونة بقصائده وفق سيرة حياته، بعنوان " البسطي آخر شعراء الاندلس " معتمداً على مخطوطة حصل عليه[٤].

أسرياته: الارجح إنه أسر في غارة على مدينته، وانه سجل تفاصيل حياته في الاسر من خلال رسائله الشعرية التي كان يرسلها لان اراضي مملكة غرناطة كانت متداخلة في ذلك العصر مع اراضي مملكتي قشتالة واراجون، ويمكن تصنيف موضوعات مراسلاته الشعرية الى:

---

[١] البسطي : ٤٥

[٢] نفسه : ٤٥ .

[٣] نفسه : ٥١ .

[٤] نشرت الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر،دار المغرب الاسلامي،ط١،المغرب، ١٩٨٥

١- **وصف احوال السجن والأسر:** يخبرنا في قصائده باطوار اسره وسجنه وقد وضع اول الامر في شبه زنزانة مقيداً مكبلاً مهدداً بوسائل التعذيب [١].

فـــي قعـــر بيـــتٍ غولُـــه مجموعـــةٌ والهـــــامُ فيـــه قـــدْ أجـــاب الهامـــا
وبجـــامعٍ جُمعـــتْ يـــدايَ وقُرمـــةٍ منعـــــتْ قيـــامي إنْ اردتُ قيامـــا

ووصـف الاشغال الشاقة التي يكلف بها التي اثرت على جسمه وقواه البدنية [٢].

حتـى ضـعفت، ورقّ جسـمي بيـنهم وتغيـــرت عـــن حالهـــا اعضـــائي
وتقرحـــت منـــي الجفـــون بـــدمها وتقـــــطعت بلهيبـــــها أحشـــائي

ويظهر أنه بيع الى أحد كبراء النصارى واصبح يعمل خادماً لديه[٣].

واحســرتي بـــعد اشـــتغالي بـــالعلو م ودرســـــها وتـــــلاوة الـــــقرآن
أُمســـي واصـــبحُ خـــادماً مُتصـــرفاً لعـــــبادة الأصنـــــام والأوثـــــان
إن لـــم اكـــن بالحفـــرِ مشـــتغلاً أكـــنُ بالـــــهدم مُنشـــــغلاً مـــع البنيـــــان
والكـنس فـي يـوم الجلـس صـناعتي والـــــرشّ يتبعُـــه مـــدى الأحيـــان
وبغســـل أقـــذار الكـــلاب تحرفـــي فـــي أكـــثر الأوقـــات والأزمـــان
فثيـــــابهم أدرانُهـــــا مغســـــولةٌ بيـــدي، وثـــوبي الدهـــرَ بـــالادرانِ

وعن بيعه يقول: [٤]

وببيعِـــي كبيـــعِ العبـــدِ بيـــعَ تزايـــدٍ بدرهـــــمِ نقـــــدٍ بعـــد درهـــمِ

---

[١] البسطي : ٢٨ ، ٢٩-٣٠ ، ٣٠ ، ٣٢ .
[٢] البسطي : ٢٨ ، ٢٩-٣٠ ، ٣٠ ، ٣٢ .
[٣] البسطي : ٢٨ ، ٢٩-٣٠ ، ٣٠ ، ٣٢ .
[٤] البسطي : ٢٨ ، ٢٩-٣٠ ، ٣٠ ، ٣٢ .

٢- الحنين الى مدينة بسطة وطبيعتها الخلابة ومتنزهاتها الجميلة وفواكهها المتعددة وفي ذلك له قصائد عدة منها قصيدته [١].

وَدَعِ الحنـــين لبسطـــة وربوعهـــا إن الحنـــين يهيـــج منـــك غلـــيلا
حيـــث الجـــداول ماؤهـــا مـــتفجرٌ اضـــحى الصـــغيرُ بهـــا يفـــوقُ النـــيلا
حيـــث البطـــاح كأنهـــا صـــحفٌ بـــدت تهفـــو الجفـــون بحســـنها التكحـــيلا
حيـــث الظـــلال توارفَـــتْ وتفيـــأت بجوارهـــا تهـــوى النفـــوسُ مَقـــيلا

حيـــث التـــراب لطيبـــه ولحســـنهِ تهـــوى الشفـــاه تســـومُه التقبـــيلا
تلـــك الربـــوع بهـــا الفـــؤاد مُتـــيّمٌ عمـــا يحـــن أبـــي التنقيـــلا

وقصيدة اخرى له مطلعها: [٢]

مـــعَ مـــا اعانيـــه يُبعـــدي دائمـــاً عـــن بسطـــة المأنوســـة الارجـــاء

ومن فواكهها في قصيدة أخرى[٣].

بالدمنـــة الغـــراءِ مـــن بســـطةٍ ادواحُ أعـــنابٍ تـــروق العيـــون
تلـــونت فيهـــا عناقيـــدها واظهـــرت للـــحسن شـــتّى الفنـــونِ
قـــالوا: هـــي الشـــهدُ لـــدى ذوقِهـــا طيبـــاً، فقلـــتُ: الشّـــهد والله دون

كما له قصائد يحن الى ايام الدراسة، يذكر ايامها ويتحسر ذهابها ويتمنى رجوعها من خلال رساله الى زميله في الدراسة ابن مالك الأليرُي.

٣- التوسل الى الله تعالى والتشفع برسوله الكريم[٤].

---

[١] نفسه : ١٩ .
[٢] نفسه "٢٠، ٢٠ .
[٣] نفسه "٢٠، ٢٠ .
[٤] نفسه : ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .

يـا مَـنْ عليـهِ فـي السِـراح أُعَـوِّل وإليـــه فـــي تعجيـــله أتوسَـــلُ

انـــتَ المـــؤمَلُ للشـــدائدِ وعليـــكَ فـــي تخفيفهـــا اتوكـــل

٤- وكان يرى ان ذنوباً ارتكبها كانت من اسباب محنته واسره وفي ذلك يقول نادماً على ما اقترف وسائلاً العفو والفرج[١].

ولا تلتفـتْ نحـو الـذنوب التـي مضَـتْ فمنهـــا بلائـــي الان اعظـــم دائـــي

٥- وكان يتمنى الموت على بقائه في الاسر[٢].

المـــوتُ اهـــونُ مـــن أســـرٍ بـــأبرة عنـدَ الـذي ذاقـــه فيهـا مـن النـاسِ

وفي الاسر كانت فتاة نصرانية تخفف عنه تدعى " إلبيرة " وقد تغزل فيها في بعض قصائده[٣].

والصـبرُ فـي اســرها مـا كنـتُ آلفـهُ لـولا اجتلائـي فيهـا حُسـنَ إلبيـرة[٤]

٤- **شعر المدح النبوي:** فن قديم متجدد، ارسى قواعده كعب بن زهير وتبعه شعراء اخرون في بيان مناقب الرسول تعبيراً عن مشاعر الحب والاعجاب والرجاء ومتنفساً ببؤس الحياة الانسانية[٥]، ووسيلة للشفاعة والتقرب من الله تعالى.

واجـــلّ الكـــلام مـــا كـــان فـــي مـــد ح شفيـــع الـــورى عليـــه الســـلامُ

طيَّـــب العَـــرفِ دائـــم الـــذكر لاتـــأ تـــي الليـــالي علـــيه والأيـــامُ[٦]

---

[١] نفسه : ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .
[٢] نفسه : ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .
[٣] نفسه : ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .
[٤] للمزيد عن هذه القصائد ينظر : البسطي ، آخر شعراء الاندلس : ١٩-٤٠
[٥] فنية شعر المدح النبوي في الاندلس : ١ ، د. عمر ابراهيم توفيق ، دار غيداء / الاردن المجلد /٥ لسنة ٢٠١١ .
[٦] الاغاني ١ : ١٦٣ ، ابو فرج الاصفهاني ، دار المعارف ، مصر

اقدم قصيدة قيلت في مدح الرسول، هي قصيدة الاعشى بعد السنة السادسة للهجرة اثناء صلح الحديبية الذي مهد لفتح مكة، واراد التقرب من الرسول فنظم قصيدة مطلعها:

ألـم تغـتمض عينـاك ليلـة ارمـدا وعـادَك مـا عـاد السّـليمَ المسُـهدا

وان قريشاً صدوه في طريقة وهي قصة مشهورة [1] وفي السنة الثانية عقب معركة الطائف، اسر جمع من قبيلة هوازن، وكان بينهم أبو جرول زهير بن حرد الجشمي، فالقى على الرسول قصيدة نقلها المقري بسند كامل مطلعها: [2]

امـنن علينـا رسـول الله فـي كـرم فانـك المـرء نرجـوه وننتظـر

وتعد قصيدة كعب بن زهير (ت٢٤ هـ) المرتكز الذي بنيت عليها القصائد المدحية في الرسول ولم يزل الشعراء منذ ذلك الوقت الى الآن ينسجون على منوالها ويقتدون باقوالها تبركا بما انشدت بين يديه، والقصيدة تتكون من مقدمة غزلية (١-١٢) ومطلعها: [5].

بانـت سـعاد فقلبـي الـيومَ متبـولُ مُتيـم إثرهـا لـم يُفـد مكبـول

و من و صف الناقة التي تبلغ بالشاعر الى المحبو بة (١٣-٣٣) و من اعتذار ومدح الرسول الكريم (٣٤-٥٨).

انبئـت أن رسـول الله اوعـدني والعفـو عنـد رسـول الله مـأمول

مهـلاً هـداك الـذي اعطـاك نافلـةال قـرآن فيهـا مـواعيظ وتفصـيل

لا تأخـذني بأقـوال الوشـاة ولـم اذنـب وان كـثرت فـيّ الاقاويـل

وحظي الرسول بقصائد حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، وفي ديوان الاول سرد لحادثة " شاة أم معبد [1] ومعظم قصائد المديح النبوي قيلت

---

[1] النفح ٣: ٣١٨ .

[2] ديوان كعب بن زهير ، صنعه الامام ابي سعيد الحسن بن الحسين العسكري ـ تقديم د. حنا نصر الحتي ، دار الكتاب العربي ،بيروت .

بعد وفاته، وما يقال بعد الوفاة يسمى "رثاء "، وفي الرسول مديح لانه موصول الحياة، وان الشعراء يخاطبونه كما يخاطبون الاحياء وان المراد بها التقرب الى الله والاشادة برمزه محمد (صلى الله عليه وسلم) بينما قصائد الرثاء تبنى على التفجع والحزن والبكاء، وللشاعر حسان ثلاث قصائد مراثيه في الرسول الاكرم، وتعد داليته من اكثر القصائد تأثيراً في نفوس المسلمين مطلعها[٢] وكان للمتصوفة الذين برز وجودهم في القرن الثالث في حقبة الجنيد (ت٢٩٧) والحلاج (ت٣٠٩) والشبلي (ت٣٣٤) اثرفي التمهيد لفكرة المديح النبوي في قصائد مستقلة وربطه بالحب الالهي، وظهور مقدمات فيها تشبيب بالارض الحجازية والهوى العذري والاسماء الرمزية، ويعد الشاعر ابو زكريا يحيى بن يوسف الصرصري (٦٥٦ هـ) من أكثر الشعراء المجيدين في المديح النبوي وكان طويل النفس في قصائده التي بلغت احداها ثمانمائة وخمسين بيتاً ويأتي بعده الشاعر ابو عبد الله محمد بن أبي بكر رشيد البغدادي الشافعي الواعظ (ت٦٦٢هـ) وقصائده الوتريه في مدح الرسول على حروف المعجم[٣] وتعد قصيدة البوصيري من أهم القصائد انتشاراً وذيوعاً ومصدر وحي لكثير من القصائد الاخرى التي امتدت كسلسلة متشابهة الى العصر الحديث[٤].

أما في الاندلس: فان المجتمع الاندلسي وان طغت عليهم مظاهر اللهو، فان صورة الرسول كانت تتلألأ امام اعينهم كباراً وصغاراً ولم تكن بينهم حركات الحادية او زندقة كظواهر عامة مثلما وجدت في الشرق وان الفلسفة كانت مذبوذة لانها تؤدي الى مناقشة الوجود الالهي، وان الفطرة كانت غالبة عليهم وملائمة لمذهبهم المالكي وان الصراع الديني مع الافرنج كان له الاثر الكبير في اضفاء الثبوتية على معتقداتهم، ويعد ابن حزم الاندلسي (ت٤٥٦ هـ) من الشعراء الاوائل

---

[١] ديوان حسان بن ثابت : ق٤٦ ، ق٤٧ .
[٢] نفسه : ق٣٠ .
[٣] معجم المؤلفين : ٩ : ١١٤ ، عمر رضا كحالة ، مط الترقي ، دمشق ، ١٩٥٧ .
[٤] للتفاصيل ينظر : فنية المديح النبوي : ١-٩ .

الذين مهدوا لقصائد المديح النبوي والاشادة بسنته واستعمال عبارة "صلى عليه " في الشعر في قصيدته التي تبلغ عدد ابياتها ثمانين بيتاً [١].

وتبلورت قصائد المديح النبوي بوضوح اكثر واستقلاليته في النصف الاول من القرن السادس للهجرة وللشاعر ابي محمد عبد الله بن السِّيد البطليوسي (ت٥٢١هـ) قصيدة يخاطب فيها مكة المكرمة ويذكر بيت الله الحرام ومبعث واصبح موضوع " الخطايا ومخاطبة الحجيج وارسال التحايا والسلام من اركان هذه القصائد وبهذا يشهد للاندلسيين السبق قبل الصرصري في العراق والبوصيري في مصر، ولأبي عبد الله بن الخصال (ت٥٤٠هـ) قصيدة في المديح النبوي[٣] ويعد ابو العباس بن العريف (ت٥٣٦هـ) أول من قال الشعر النبوي في الاندلس يحمل سمات صوفية، ونقل المقري اشعاراً نبوية له يذكر انه نقلها من كتابه المفقود " مطالع الانوار ومنابع الاسرار "[٤].

وحقّـــكَ يـــا مُحمـــد إنّ قلبـــي يُحبـــك قربـــة نحـــو الالـــه

جـــرَتْ امـــواه حبِّـــك فـــي فـــؤادي فهـــام القَلـــبُ فـــي طيـــب الميـــاه

وله قصيدة اخرى بعنوان " شد الرحال " بصيغة اشراقية مستعملاً إشارات صوفية يمكن تسميته بالحجازيات في مخاطبة مواكب الحج[٥].

شـدوا الرِّحـال وقـد نـالوا المنـى بمِنـي وكُلُهـــم بـــألِيم الشَّـــوق قـــد باحـــا

راحـــتْ ركـــائبهم تنـــدى روائحهـــا طيبـا بمـا طـــاب ذاك الوفـد اشـباحا

نسـيم قبـر النبـي المصطفـى لهـم راحٌ اذا ســـكروا مـــن اجلـــهِ فاحـــا

---

[١] القصيدة كاملة : تاريخ الادب العربي ، سيادة قرطبة ، الملحق ٢٧٠-٢٧٤ ، طبقات الشافعية ٢ : ١٨٤ السبكي ، البداية والنهاية : ١١ : ٢٤٧ ، ابن كثير .

[٢] القصيدة كاملة : القلائد ٢ : ٧٢٩ ، ازهار الرياض ٣ : ١٤٧ .

[٣] فهرسة : ٤٢١ ، ابو بكر بن خيرة ، تاريخ فكر الاندلسي : ١٧٧ .

[٤] النفح ٧ : ٤٩٧ .

[٥] نفسه ٦ : ٦٤ .

كما له قصيدة يفتتح ابياتها البالغة واحداً وثلاثين بيتاً بعبارة " صلى الله عليه وسلم "[1] وهو نمط تكرر لاحقاً في القصائد النبوية، و هو يدعو الله ان يصلي على رسوله ما هطلت السحب بالغيث وتغنى الطير على الاغصان وهو اسلوب سار عليه المتأخرون في الصلاة عليه بعدد الحصى في الارض وزخات المطر، ولم تتضح عنده فكرة " الحقيقة المحمدية " بان الله تعالى اول ما خلق محمدا وبشره بالنبوة و من ثم خلق ادم على صورته وخلق العرش والنور والاولياء من النور المتكاثف و هي الفكرة التي كررها الصرصري بقوله [2].

لـــولاه لـــم يخلـــق ابـــونا آدم وجحـــيم نـــارٍ أو نعـــيم جنـــان

قـــد كـــان آدم طينـــة ومحمـــد يـــدعي نبينـــا عنـــد ذي الاحســـان

واضفاء صفات غير حقيقية على الرسول الكريم حسنة سيئة لاسيما ان الله تعالى خلق آدم اولاً وقدمه على بقية الانبياء في الترتيب الزمني "إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين " [3].

انتعشت قصائد المدح النبوي في عهد الموحدين وبني الاحمر امتداداً للقصائد السابقة ورد فعل على الظروف السياسية السيئة من انحلال وذوبان و خوف على حياتهم من انقضاض عدوهم النصراني عليهم، والتحليق في الاجواء الشعرية بحجازيات يختلط فيها النسيب والشكوى والرجاء، ورفع المعنويات لمقاومة التحدي الخارجي من خلال الاستلهام من مقاومة الرسول الاعظم ومدح الملوك في تمجيد مواقفهم في رعاية المقدسات والدفاع عنها اضافة الى الاستنجاد بالرسول وان الله تعالى لا يتخلى عن دينه وعن عباده المخلصين.

---

[1] نفسه : ٧ : ٤٩٧ .
[2] الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد : ٢٧٩ د. عبد الكريم توفيق .
[3] آل عمران : ٣٣ .

قال ابن خلدون (٨٠٨هـ): " ان الشعر في الربانيات والنبويات قليل الاجادة في الغالب إلا الفحول " [١] لذلك نشير الى اهم الشعراء الذين اجادوا او احتل المديح النبوي المساحة الاكبر من شعرهم.

يعد لأبي زيد الفازاري (ت٦٢٧ هـ) الفضل في رسوخ قصائد المدح النبوي في الاندلس، فله مجموعة شعرية بعنوان " الوسائل المتقبلة والاثار المسلمة في مدح النبي "[٢] وهي مخمسات على الحروف الهجائية من الهمزة الى الياء، وقد اشتملت على عشرين دوراً، فمن قوله في المخمس النوني:

بدا قمرا مسراه شرقٌ ومغربُ وخُصّتْ بمثواه المدينة يثربُ

وكان في سُدرة النور مضرب نجيٌّ لرب العالمين مقرّب

حبيبٌ فيدنو كل حين ويستدني

ويقول ان الرسول الاعظم استضاء المشرق والمغرب بنوره وخصت بها يثرب ويشير الى صعوده السماء في سورة المنتهى ليقترب من رب العالمين.

ولابن سهل الاشبيلي (٦٤٩هـ) عينية في ثمانية وعشرين بيتاً، اشتهرت في بلاد المغرب يتناول اماله وشوقه لزيارة قبر الرسول، ويصف ركب الحجيج وما في صدورهم من الشوق الذي ينعكس عليهم كغصون يانعة او حمامات مسجعة تنم بها مسكاً من مناجاة الرسول، ووصل الشوق به الى مطالبة الحجيج بأخذ قلبه ورميه مع الجمرات [٣].

خذوا القلبَ يا ركب الحجاز فأنني أرى الجسم في اسر العلائق قابعا

ولا ترجعوه إن قفلتم فإنما أمانتكم ألا تردوا الودائعا

مع الجمرات ارموه يا قوم إنه حصاة تلقتْ من يد الشوق صادعا

---

[١] مقدمة ابن خلدون : ١١٠٧-١١٠٨ .
[٢] مطبوع ، دار احياء الكتب العربي – القاهرة .
[٣] ديوان ابن سهل : ٩٩ .

بينما تصدر معاصره ابن الجنّان الانصاري (ت ٦٥٠هـ) الملقب بشاعر المديح النبوي شعراء عصره من حيث غزارة انتاجه وتحتل النبويات والحجـازيات نصف قصائده المجموعة ومعانيه تدور في حب الرسول والتفنن في ذكر مواجده واشواقه وعرض خلاله ومعجزاته والاستشفاع في الدنيا والآخرة، ويكرر مفهوم الصلاة والسلام في أبياته: [١]

صـــلوا علـــى هـــذا النبـــي فأنـــه مَـــن لـــم يـــزل بـــالمؤمنين رحيمـــا

يـــا أيهـــا الراجـــون منـــه شـــفاعة صـــلوا عليـــه وســـلموا تســـليما

وفي القرن الثامن للهجرة اصبح المديح النبوي جزءاً من قصائد المديح في سلاطين بني الاحمر، ولابن الخطيب (٧٧٦هـ) قصائد مدحية مرفوعة يستهلها بمقدمة غزلية قصيرة في النسيب ثم الانتقال الى المديح النبوي ومختتماً بأبيات قليلة في الممدوح، كما له قصائد على شكل رسائل موجهة الى الرسول الاعظم على لسان سلاطين بني الاحمر ومختتماً قسماً منها بنصوص نثرية[٢].

وسار على منهجه الشاعر المعاصر له ابن مرزوق (٧٨١هـ) الذي له قصيدة القاها في المولد النبوي سنة (٧٦٣ هـ) ابتدأها بمقدمة وصفية لروض من رياض غرناطة على غرار قصائد ابن زيدون في الحديث عن لهو في ظل الطبيعة الزاهرة ثم التخلص الى وصف الركب المتجهة الى الديار المقدسة[٣] ولابن زمرك الذي اشرنا اليه سابقاً قصائد كثيرة في المديح كان يقدمها سنوياً في الاحتفال في ليلة المولد النبوي [٤] وللمنتشافري المعروف بأبي الحجاج الحذامي الذي عاصر ابن الخطيب قصائد وكتب في السيرة النبوية[٥].

---

[١] النفح ١٠ : ٢٩٤ .
[٢] المديح النبوي في الاندلس : ١٧ .
[٣] النفح ٧ : ٣١٥-٣٢٢ .
[٤] ديوان ابن زمرك : ١٤-١٦ .
[٥] النفح ٨ : ٢٤٢ .

أما الشاعر ابن جابر الضرير (ت٧٨٠هـ): فقال عنه المقري"وامداحه النبوية في غاية الاجادة " له قصيدة تجمع بين قصيدتي كعب بن زهير والبوصيري بنفحة أندلسية متكونة من مئتين وستة وتسعين بيتاً مطلعها: [١].

بـــادرَ قلبـــي للهـــوى ومـــا ارتـــأى لمـــا رأى مِـنْ حسـنها مـا قـد رأى

يبدؤها بالنسيب ثم يتخلص الى مناجاة المكان وبيان الغرض من تنظيم القصيدة والذي هو التوبة واصلاح ما فاته من الذنوب في حوار داخلي مع النفس، صعوداً بالافتخار بالذات وهبوطاً في الحديث عن الشيب والكبر والدعوة الى التزهد وعرض الخواطر والحكمة باسلوب وعظ عن الجود والبخل والفقر والعلم والجهل والزمن.... والعبرة من التاريخ بتذكر المتلقي بعروش ساسان ومعاوية والمأمون... وتفصيل القول في شمائل الرسول ومعراجه ومعجزاته، كما تحدث عن تفاصيل حجه الى البيت الحرام واكتحال عينيه بنور قبره... وتغلب الوعظية والمباشرة على القصيدة مع كثرة الخواطر والحكم وقلة الصور البيانية والبديعية وغلبة نظام السرد وفيها ضعف العاطفة لطول القصيدة وهي اشبه بشعر تعليمي وأخيراً لا بد الاشارة الى نونية القشتالي وهي في المديح النبوي وشرح الحال وبيان ما في الضمير من الغربة والارتحال، وأورد المقري القصيدة كاملة[٢].

معاني قصائد المدح النبوي: [٣]

١- الحجازيات والشوق لزيادة أرضه الطيبة.
٢- صفات الرسول وخُلقه.
٣- دلائل النبوة.
٤- مدح أهل البيت والصحابة.

طبقات الشعراء

---

[١] النفح ٢ : ٦٦٤ .
[٢] نفسه ٦ : ٣٢٧-٣٤١ .
[٣] للتفاصيل ينظر : فنية المدح النبوي : ١٩-٣١ .

١- الشعراء الموظفون (شعراء البلاط):

وهم الشعراء الذين خدموا كتابا او وزراء في دولة بني الاحمر وكانت مهمتهم التغني بامجاد السلطة وتحرير الرسائل الرسمية لسلطان غرناطة والبحث عن كل لطيف وممتع يمكن تطبيقه في المناسبات الرسمية شأن القوانين الادارية ذات الصبغة الموحدة وطريقتهم كانت طريقة محافظة تتناسب مع حرفيتهم ومكانتهم الادارية لذلك بقي الشعر العربي في تلك الحقبة على شكل واحد لا يختلف بين شاعر وآخر متصفاً بنوع من الجمود قليل الحيوية، كأنه موضوع ضمن مقاييس مقننة او مصبوبة ضمن قوالب مكررة بحرفية بالغة معتمدة على العقل والتعلم، ومن هؤلاء الشعراء: ابن الحكيم الرُندي وابن الجياب الغرناطي الذي كان رئيسا لديوان الكتابة طيلة خمسين عاماً ولسان الدين ابن الخطيب وابو الحسن النباهي وابن زمرك وابن فُركون الذي كان مادحاً ليوسف الثالث وابن عاصم الذي كان يكتب قصائده بألوان ثلاثة من المداد الاسود والاحمر والاخضر وله قصيدتان وموشحتان بذلك التنوع واخيراً الشاعر محمد بن عبد الله العقيلي، المعروف بالعربي الذي كان مادحاً لابي عبد الله الصغير اخر سلاطين بني الاحمر ويمثل ابن الخطيب خير من يمثل تلك الحقبة: -

١- **لسان الدين ابن الخطيب:** هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله السلماني المعروف بابن الخطيب، من اشهر اعلام القرن الثامن للهجرة لمنزلته السياسية التي تحققت له وتنوع شخصيته العلمية وغزارة نتاجه على مستوى العلوم الانسانية المتنوعة.

ولد في مدينة لوشة سنة (٧١٣هـ)، مارس جده الادنى التعليم والتدريس فغلب عليه لقب"الخطيب " ورثه فيه ابناه، وكان ابوه يشغل منصباً ادارياً في دولة ابي الوليد اسماعيل، لذلك نشأ في غرناطة، واخذ علومه على يد أكابر علماء عصره[١] وحين توفي ابوه سنة (٧٤١هـ) خلفه في ديوان الانشاء و كان يرأسه الشاعر ابو

[١] اللمحة البدرية : ٢١ ، الاحاطة ٤ : ٤٥٨ .

الحسن بن الجياب وزير السلطان ابي الحجاج يوسف بن اسماعيل (٧٣٤-٧٥٥هـ) ثم خلفه بعد وفاته واصبح رئيس الكتاب ورئيس ديوان الانشاء وانعم عليه السلطان لقب الوزارة، تألق نجمه وعظمت منزلته، ودخل معترك السياسة، واحترق بنارها، غادر الاندلس الى المغرب لاجئا، واحرقت كتبه سنة ٧٧٣ هـ ثم سجن في المغرب بأمر سلطان بني الاحمر وقتل في السجن سنة (٧٧٦للهجرة)، كما توضح لدينا عند حديثنا عن تلميذه ابن زمرك[١].

أثاره ومؤلفاتــه: بلغت ستين كتاباً وكراسة وصل منها ثلثها[٢] ويمكن تقسيمها الى:

أ – النثر التأليفي ويتجه معظمه نزعة موسوعية او رسالة موجزة، تاريخية وعلمية، منها "الاحاطة في اخبار غرناطة "، التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى، الكتيبة الكامنة في من لقيته بالاندلس من شعراء المئة الثامنة، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب، اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، طرفة العصر في تاريخ دولة بني نصر، الاكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم الجواهر، عائد الصلة، و"الاماطة عن وجه الاحاطة "....

ويتميز كتاباته التاريخية بان التاريخ عنده رواية واداة لتدوين السير والاعتبار بالحوادث الماضية واخذه بالمنهج النقدي والمنهج الاجتماعي في دراسة التاريخ والتثبث والتحقيق في حوادثه[٣] خلف مجموعة من المؤلفات العلمية وهي

---

[١] للمزيد عن حياته ينظر : لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكري ، محمد عبد الله عنان ، مط الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، النفح : ق٢ ، كتاب " العبر .. ابن خلدون ، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان ونثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان لابي الوليد بن الاحمر ، تحقيق : محمد رضوان الداية ، وبغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، لابي زكريا يحيى بن خلدون (ت٧٨٠هـ) .

[٢] لسان الدين ابن الخطيب : ٢١٦ .

[٣] لمعرفة مؤلفاته ينظر : كتابه معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، تحقيق : د. محمد كمال شبانة الفصل الاول : حياته واراء المستشرقين عنه والفصل الثاني : تراثه الفكري ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .

رسائل في الطب والأغذية وعلاج السموم، ومنها رسالته عن وباء الطاعون وارجوزة في اصول الفقه وأخرى في العروض وثالثة في فن السياسة[١].

مؤلفاته الشعرية: له ديوان بعنوان " الصيب والجَهام والماضي والكهام " اذلا يحتوي الديوان على اشعاره جميعاً، لوجود مجموعة ضخمة منها في الجزء الرابع من كتاب الاحاطة لم ترد في الديوان، كما له مجموعات شعرية مختارة منها: كتاب السحر والشعر كما ورد في النفح[٢] وكتاب جيش التوشيح الذي يعد اوسع مجموع شعري للموشحات، ومجموعتان شعريتان مفقودتان من شعر استاذه ابن الجياب ونثره ومن شعر ابي جعفر بن صفوان المالقي[٣].

شاعريته: كان من ذوي المواهب المزدوجة وجمع بين ملكتي الشعر والنثر، وتناول الاغراض الشعرية من المديح والغزل والزهد والتصوف والمدح النبوي، وله مساهمات واسعة في ميدان الزجل والتوشيح[٤].

أغراضه الشعرية

١- المديح:

ممدوحه الاول هو ابو الحجاج يوسف بن اسماعيل، وله تسع واربعون قصيدة مرفوعة اليه في الفي بيت بمناسبات مختلفة كالتهنئة بعيدي الفطر والاضحى او الاحتفال بالمولد النبوي وقدوم نوروز وازدياد مولود وتعزية بمفقود والتهنئة بالبيعة، ويمكن ان نعد قصائده سجلاً حافلاً للوقائع السياسية والعسكرية لتلك الفترة، وممدوحه الثاني هو محمد الغني بالله الذي خلف اباه، وقد نظم قصيدة دالية في اربعين بيتاً يهنئه ببيعته سنة ٧٥٥هـ [٥].

---

[١] لسان الدين : ٢٢٠ ، الادب الاندلسي: ٢٢٩ منجد .
[٢] النفح ١ : ٧٦ .
[٣] لسان الدين : ٢٨١ .
[٤] تناول شاعريته رسالتان جامعيتان ، دراسة وتحقيق ديوانه ، د. محمد الشريف قاهر وشعر لسان الدين بن الخطيب وخصائصه الفنية ، وهاب سعيد الامين ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ .
[٥] الديوان : ق : ١٧٣ .

إمـــام هـــدى مـــن آل ســـعدِ نجـــاره ونصـــر الهـدى ميراثــه لنبـي سـعد

غمـــام النـــدى جـــاد الـــبلاد فاصـــبحت تجـرر ذيـل الخِصـب والعيشـة الرغـدِ

مـــن النفـــر الوضـــاح والســـادة الألـــى يغيثـون فـي الجـلى ويوفـون بالعهـدِ

٢- الغـزل:

غالباً ما يرد في مقدمات قصائده المدحية، وله عشر قصائد مستقلة في الغزل الخالص منها قوله[١].

يـــا حبيبـــاً مَـــن لعينـــي أن تـــراه قـــد رمـــى حبُـــك قلبـــي وبـــراه

لـــم يـــدع هجـــرك لـــي مـــن رمـــق آه ممـــــا فعـــــل البـــــين وآه

يـــا لقَلبـــي كلّـــما هَبَـــتْ صَـــبا شـــفه الوجـــد لأيـــام صـــباه

يـــا نســـيم الريـــح بلـــغ خبـــري إن اتيـــتَ الربـــعَ أو جئـــت حِمـــاه

ولقـــد كنـــتَ صـــبورا إنـــما صـــدعَ البيـــن فـــؤادي وكـــواه

جـلّ مـا ألقـاه مِـن فـرط الجـوى حســـبي الله، فـــلا ربّ ســـواه

٣- الشعر الديني:

تغلب المسحة الدينية على قصائده، فهو رجل ورع تقي له قصائد زهدية ونفحات صوفية، وقصائد في المدح النبوي، وقد اشرنا الى ذلك في موضوع المدح الذبوي، كما له قصائد في الرثاء والاخويات ومقل في الهجاء لعدم التناسب مع شخصيته وفي كتاب الاحاطة، له مقطعات كثيرة متنوعة وقد استهلها بقوله " المقطوعات المشتملة على الاغراض العديدة " [٢] ولم يرد معظمها في الديوان.

نثـره: قال المقري " اما نثره فهو البحر الزخار، بل الدر الذي به الافتخار "[٣] ونثره الفني يتخلل نثره التأليفي ويتجلى في مقدمات كتبه وفي سياقها ومن ذلك ما كتبه في مقدمة كتابه " معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار " " بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد، الحمد لله الذي انفردت صفاته بالاشتمال على اشتات الكمال والاستقلال باعباء الجلال، المنزه عن احتلال الحلال، المتصفة

---

[١] الديوان : ق : ٣٤٧ .
[٢] الاحاطة ٤ : ٤٩٧-٥٢٥ .
[٣] النفح ٦ : ١٦٤ .

الخلال بالاختلال، المعتمد بالسؤال لصلة النوال، جاعل الارض كسكانها متغايرة الاحوال، باختلاف العروض والاطوال، متصفة بالمحاسن والمقابح عند اعتبار الهيئات والاوضاع والصنائع والاعمال، على التفصيل والاجمال، فمن قام خيره بشره دخل تحت خطة الاعتدال، ومن قصر خيره عن شره، كان أهلاً للاستعانة والاستبدال،

ومن أربى خيره على شره وجب اليه شد الرحال، والتمس بقصده صلاح الحال... "[1].

وتحتل رسائله الدبلوماسية (السلطانية والديوانية) حيزاً كبيراً من مساحة نثره الفني لانه تولى رئاسة ديوان الكتابة وكانت دولة بني الاحمر تمر بأيام صعبة، وكانت مهمته عسيرة وتحتاج الى دراية ودبلوماسية وقد اورد المقري رسائل مطوله له، ومنها رسالة كتبها عن سلطان الاندلس الغني بالله الى سلطان مصر احمد بن الناصر قلاوون يشرح فيها احوال الاندلس الصغرى والمخاطر الخارجية التي كانت تهددها ونصها " الابواب التي تُفتَح لنصرها أبواب السماء، وتُستدر من آفاقها سحاب النعماء، وتجلى بانوار سعدها دياجي الظلماء، وتُعرَّف نكرة البلاد والعباد بالانتساب الى محبتها والانتماء، على اختلاف العروض وتباين الحدود وتعدد الاسماء... أبواب السلطان الكبير، الجليل الشهير، الطاهر الظاهر، الاوحد الاسعد، الاصعد الامجد الاعلى العادل، العالم الفاضل الكامل.... " [2]

ويلاحظ الاسراف في السجع والإيغال في الصنعة، وكثرة الالقاب السلطانية التي تزيد أحياناً عن ثلاثين لقباً، الاطالة والاطناب الى حد الملل، وفي التحميدات اتى باربع وعشرين سجعة على حرف واحد، وهو غير جائز في النثر، كما وله رسائل اخوانية مع ابناء عصره من العلماء والادباء منها المراسلة التي جرت بينه وبين الاديب ابن خاتمة الانصاري (٧٧٠ هـ) وقد نشر المقري في ازهار الرياض نص

---

[1] معيار الاختيار : ٧١ .
[2] النفح ١ : ٣٠٠ .

الرسالة والجواب[١] وهي تختلف عن الرسائل السلطانية واقل مبالغة منها، ولابن الخطيب مشاركة في ادب المقامات، اذ وردت مقامة له باسم " مقامة السياسة " في القسم الاخير من كتاب الاحاطة[٢] ومقامة خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف وهي عبارة عن مشاهداته الاندلس[٣] وكتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار وهو اشبه بالمقامات من حيث الاسلوب في وصف مشاهداته في رحلته الى شمال افريقيا[٤]، واتبع طريقة المقامة اسلوباً وروحاً ووصفاً ومزجاً بين النثر والشعر، وبطله شيخ وقور معروف بالاستقامة والراوي هو نفسه لانه اتبع اسلوب السرد، وما جاء في معيار الاختيار في وصف البلدان[٥]، " قال: ضمني الليل وقد اسدل المسح راهبه، وانتهب قرص الشمس من يد الامس ناهبه، ودلفت جيوش الحبشية كتائبه وفتحت الازهار بشط المجرة كواكبه وجنحت الطيور الى وكونها، وانتشرت الطوافات بعد سكونها، وعوت الذئاب فوق هضابها ولوحت البروق ببيض عضابها، وباهت الكف الخضيب بخضابها، وتسللت اللصوص لانتهاز فرصها، وخرجت الليوث الى قسمها وحصصها، في مناخ رحب المنطلق، وثيق الغلق.... فلما ارحت الكلفة واقضمت جوادي العلفة وأعجبتني من رفقاء الرفق الألفة، رمقت في بعض السقائف آمنا في زي خائف، وشيخاً طاف منه بالارض طائف... حتى اذا اطمأن حلوله، واصحب ذلوله وترد الى قيمّ الخان زغلوله، واستكبر لما جاءه بما يهواه رسوله، استجمع قوته واحتشد ورفع عقيرته وانشد:

اشكـــو الـــى الله ذهـــاب الشـــباب كـــم حســـرة اورثنـــي واكتئـــاب

ســـدّ عـــن اللـــذات بـــاب الصـــبا فـــزارت الاشجـــان مـــن كـــل بـــاب

---

[١] ازهار الرياض ١ : ٢٦٧ .
[٢] الاحاطة ١ : ٦١٤ .
[٣] مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ .
[٤] معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانه ، مكتبة الثقافية الدينية ، القاهرة ٢٠٠٢ .
[٥] نفسه : ٧٣ .

وغربـــة طـــــالتْ فمـــا تنتهـــي موصـــولة اليـــوم بيـــوم الحســـاب

وشـــر نفـــــس كلمـــا هملجـــت فـــي الغـــي لـــم تقبـــل خطـــام المتـــاب

يـــا رب شفـــــع فـــي شـــيبي ولا تحرمنـــي الزلفـــى وحســـن المـــآب

..... " [1].

**** *

٢- **شعراء غير الموظفين:**

لم يكن شعراء غرناطة جميعهم موظفين، فقد كان منهم من يكتب لهواية للاستمتاع به، وكان أحياناً يولعون بألغاز شعرية او يتناولون موضوعات جادة بعيدة عن معنى اللذة واللهو الذي امتاز به الشعر الاندلسي قبل العصر الغرناطي، وكان موضوع الفناء والعدم وفكرة زوالهم وفنائهم والاشارة الى ظهور الشيب كما بينا في مقامة ابن الخطيب من الموضوعات المتكررة عندهم، او بلوغ العمر اربعين او خمسين سنة علامة الفراق للدنيا كما ظهر عند البسطي وغيره في موضوع زوال الشباب والحياة، لذلك يمكن القول ان الشعر في تلك الفترة للظروف السياسية القاسية والخوف من المستقبل كان خالياً من البهجة على الرغم من وجود الصنعة الفنية الفائقة، وكان الشعر الصوفي والزهد والمدح النبوي والرثاء اضافة الى مدح السلاطين من الموضوعات التى طغت، وقد حاولوا سد الفراغ بابتكار ألغاز شعرية كالتوريات أو شعر مزدوج او ثنائي الدلالة فيما يمكن تسميته باللعب بالالفاظ ومن شعراء تلك الفترة: ابو حيان الاندلسي وابن مرجل المالقي والبسطي وابن خاتمة والعربي والقلصادي والسلطان يوسف الثالث وكانت المرارة على السنة معظمهم كما في قول الاخير وهو يصور حسرته على ثغور الاندلس وفرسانها: [2]

---

[1] ذلوله : دابته سهلة القياد ، زغلوله : غلام الخفيف السريع ، هملجت : المشي .

[2] ديوان يوسف الثالث: ٢٣ .

لهـف نفسـي علـى الثغـور تخلـت فهـي صـغر مـن الكمـاة الحمـاة
وانـاس علـى المعاصـي جهـاراً قـد أبـاحوا حريمنـا للعـداة
لسـت للصـيد مـن خلائـف نصـر يـوم اهنـأ بسلـم تلـك العتـاة

أو حسرة البسطي بعد معركة غير متكافئة قوله: [1].

لمصـاب أنـدلس تصـوب الأدمـع ولمـا جـرى فيهـا تـذوب الاضـلع
فلهـا مـع الأعـداء حـال تفـزع تقضـي بحسـرة مـن يـرى او يسـمع

وتكاد مهجتـه له تتصدع

جـار الزمـان علـى جميـع جهاتهـا فأبـاح حرمـة أهلهـا لعـداتها
اتـرى الألـه يقيلهـا عثراتـها ويزيـل مـا هـي فيـه مِـن غمراتهـا

بدنو نصر بالفتـوح يشفع

فلقـد احـال عدوهـا أحوالهـا حـين الخطـوب أذاقهـا اهوالهـا
وافـاض فـي اقطـارها إذلالهـا لمـا أبـاد بلـورق ابطالهـا

يوم العروبـة كان فيه المصرع

ابن خاتمة الانصاري (ت ٧٧٠هـ): هو ابو جعفر احمد بن علي بن محمد بن خاتمة الانصاري ولد سنة (٧٢٤ هـ) في مدينة المرية، و هو شاعر وكاتب ومترسل وفقيه وزاهد، له مؤلفات عدة منها " مزية المرية على غير ها من البلاد الاندلسية " وديوان شعر جمعه وخطه بنفسه[2] وفيه مو شحات حسنة بديعة، و له باع في فن التوريه، جمع ما قاله تلميذه ابن زر وجعله بعنوان " رائق التحلية في فائق التورية " له مراسلات شعرية مع الشاعر ابن جزي الكلبي، منها قصيدة من اربعة وعشرين

[1] البسطي : ١٧٢ .
[2] ديوان ابن خاتمة الانصاري،تحقيق : د. محمد رضوان الداية ، وزارة الثقافة،دمشق ١٩٧٢.

بيتاً خالية من حرف الراء لان شاعرنا كان يلثغ فيجعل الراء غينا منها ما ارسله اليه فأجابه ابن خاتمة بقصيدة زائية خالية من الراء يقول فيها: مطلعها: [1]

مــزج البلاغــة بالجزالــة مــوجزاً واتــى بــه فــي ا لحسـن بـدعاً معجـزاً

عـاش فـي القـرن الثـامن للهجـرة المتسـم بنـوع مـن الاطمئنـان بعـد التعـاون العسكري الذي كان بين دولة بني مرين في المغرب ودولة بني الاحمر في الاندلس، ، واشتهر شاعرنا بقصائده الغزلية التي استوحاها من طبيعة منطقة مرية المزينة بازهار الاندلس ومياهها، وله في ذلك تسع واربعون قصيدة مرتبة حسب الطول، و هي قصائد تجمع بين الوصف والغزل، وقال عنها محقق الديوان " غزله رقيق المعاني، رشيق العبارة، يدل على قدرة الشاعر وموهبتــه وتمكنه من الصنعة "[2] وقدرته في توظيف الحواس كالعين والسمع واللمس والشم والذوق، وله وقفات مع العيون [3].

فـانْ خـفّ خطـوُ الـوهم عـن حـدِّ طـوره فـثمَّ سِهــام اللحـظِ عـن كثـب تُـردي

وا ين ضراب السيـف من لحظِ ناظرٍ وأنّ طِعـانَ الرمــحِ مِـن قـائم النَّهـدِ

أو قوله[4]:

أكــلُّ شــاكٍ بــداء الحــبِّ مضــناك مــاذا جَنَتْــهُ علــى العشــاق عينــاكِ

قد كان لي عن سبيل الحب مُنصرفٌ حــتى دعــوتِ لــه قلبــي فلّبــاكِ

وقد وظف القمر والبدر والشمس في قصائده الغزلية، اذإن حبيبته في معظم قصائده تشبهه او تتفوق جمالاً وهو يستنير من سناها في الليل ولاسيما عندما تخلع

---

[1] اعلام المغرب والاندلس : ١٧٩ .
[2] ديوانه : ١٨ .
[3] نفسه : ق٥ .
[4] نفسه : ٢٠٣ .

النقاب عن وجهها، فيلوح جمالها تماماً كما يلوح البدر من وراء السَّحاب في ظلمة الليل.

****